جمالية التصوير الفني في الخطاب القرآني الجليل

The aesthetic of artistic imagery in the Quranic discourse

أ.د أ.د/يوسف بن نافلــة *

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، (الجزائر)، youcef080 @live.fr

تاريخ الارسال2023/01/11تاريخ القبول 2023/01/14 تاريخ النشر2023/02/07

ملخّص :

تروم هذه الورقة البحثية إلى الحديث عن موضوع التعبير القرآني ،وأسلوب القرآن الكريم ،وذلك بتناول المفردة القرآنية ،والآية الكريمة وصياغتها، وكذا التشبيه ،والاستعارة ،والكناية ،والفاصلة القرآنية ،وهيكل السورة القرآنية الكريمة (المطلع-الجسم – والخاتمة) ،وكذا القصة القرآنية وخصائصها المتمثلة في التكرار، والانتخاب ،والموعظة، وعناصر القصة في القرآن الكريم المتمثلة في الشخصية ،والحوار ،والصراع ، المفاجأة، التصميم .

ثم خاتمة أُجمل فيها أهم النتائج المتوصّل إليها ،وأُجيب فيها عن الإشكال المطروح في المقدّمــة.

الكلمات المفتاحية: الصورة الفنية – التصوير الفني – الخطاب القرآني – بلاغة التعبير – نظرية النظم.

Abstract: This research paper aims to talk about the subject of the Qur'anic expression and the style of the Holy Qur'an, by dealing with the Qur'anic term, the noble verse and its formulation, as well as analogy, metaphor, metaphor, the Qur'anic comma, the structure of the Qur'anic surah (the beginning – the body – and the conclusion), as well as the Qur'anic story and its characteristics Represented by repetition, selection, exhortation, and story elements in the Holy Qur'an represented by personality, dialogue, conflict, surprise, and design. Then a conclusion in which I summarize the most important results reached, and answer the problem raised in the introduction.

Keywords; Artistic image ; Artistic photography ; Quranic discourse ; Rhetoric of expression ; Systems theory

المقدّمـــــــة:

لا جَـرَم أنّ دراسة القرآن الكريم لن توجّه على أنه كتاب تشريعي ،ولا على أنه أصل ديني ، بل على كونه كتاباً يقف في قمّة البلاغة العربيّة ،والأسلوب الذي أعجز الفصحاء ،والبلغاء ، وجهابذة اللغة العربية الجميلة ، على أن يأتوا بمثله ،ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وسأحاول قدر الطاقة ،وجُهد المستطاع أن أُبيّن خصائص الأسلوب القرآني ،ونجلو شيئا من سماته ،ومزاياه ، و قصد الوقوف على سرّ جمال التصوير الفني في القرآن الكريم، يقتضي التعرف عل العناصر التي تألف منها هذا البناء أو

* المؤلف المرسل

الهيكل العظيم لأسلوب الخطاب القرآني الجليل ، لذلك وجب أن أقف عند جمالية المفردة القرآنية ،والتعبير ،والصورة ،والجوه المختلفة للتراكيب ،سواء أكانت موعظة أو قصة ،أ و قاعدة اقتصادية أو اجتماعية ،أو سياسية.

أما عن الإشكال الذي أرغب في طرحه في هذه الورقة العلمية فيتمثل في الآتي:

*فيما يكمن سرّ جمالية التعبير في القرآن الكريم؟

*ما أهم معالم التصوير الفني والجمالي في القرآن الكريم؟

*ما مكن الإعجاز اللغوي في المفردة القرآنية؟

*ما موضع بلاغة الكلمة في التعبير القرآني؟

معنى الأسلـوب:

يذكر د/بكري شيخ أمين أنّ لكلمة " الأسلوب " في المعنى اللُّغوي معانٍ عدة منها: السطر من النخيل ،والطريق بين الأشجار ،والوجه ،والمذهب ،وطريقة المتكلّم في كلامه.

أما "الأسلوب "في الأدب فهو الطريقة التي يسلكها الإنسان في تأليف كلامه ،واختيار ألفاظه.

ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به ،فإنّ لكلّ كلام إلهي ،أو بشري أسلوبه الخاص به ،وأساليب الأدباء من كتّاب ،,الشعراء تتعدد بتعدد أشخاصهم ، بل تتعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها ،والفنون التي يعالجها ."[1]

والمتعارف عليه لدى اللغويين ،و أهل الاختصاص أنّ " الأسلوب غير المفردات ،والتراكيب التي يتألّف منها الكـــلام ،،وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلّف في اختيار المفردات ،والتراكيب لكلامه ،وهذا هو اسرّ في أنّ الأساليب مختلفة باختلاف الأدباء ،مع أنّ المفردات التي يستخدمونها واحدة ، والتراكيب في جملتها واحدة ،وقواعد صوغ المفردات ،وتركيب الجمل واحدة .

إنّ القرآن الكريم لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم ، فمفرداته مفرداتهم ،وجُمله جملهم، وقواعد صوغه قواعدهم من حروف العرب تألّفت كلماته ،ومن كلماتهم تألّفت تراكيبه ،وعلى قواعدهم جاء تأليفه ،ومع هذا فقد أعجزهم بأسلوبه الفذّ ،ومذهبه الكلامي المُعجز ،ولو دخل عليهم من غير هذا الباب الذي يعرفونه لا يمك أن يتلمّس لهم عذر ،وأن يسلم لهم طعن أو شبه طعنٍ. "[2] ((**إنّا أنزلنـــــاه قرآناً عربيّاً**)) [3]

إنّ في مفردات اللغة ما هو متآلف في حروفه ،أو متنافر ،وما هو واضحٌ مستأنس ،أو خفي غريب، وما هو رقيق خفيف على الأسماع أو ثقيل كريه تمجّه الأسمـــاع،وما هو موافق لقياس اللغة أو مخالف له ، ثم من هذه المفردات عام ،وخاص ،ومطلق ،ومقيّد ،ومُجمل ،ومفصّل ،ومُعرّف ،ومنكّر ، وظاهر ،ومضمر ،وحقيقة ،ومجـاز.

كذلك التراكيب منها ما هو حقيقة ،ومجاز ،ومنها متآلف الكلمات ،ومتنافرها ،وواضح المعاني ،ومعقدّها ،وموافق القياس اللغوي ،وخارج عنها ،ومنها الاسمية ،والفعليـة ،والخبرية ،والإنشائية ، وفيها النفي ،والإثبات ،والإيجاز ،والإطناب ،والتقديم والتأخير ،والفصل والوصل ، إلى غير ذلك .

من هذه الأمور التي ذكرها الدكتور بكري شيخ أمين ما ينفذ الأدباء إلى أغراضهم في تعبيرهم ،ولكن ما كل ما ذكره صالح لكل تعبير ، بل لكل مقام مقال ، فما يحمل في موطن قد يقبح في آخر ،وما يجب في مقام يمتنع في مقام

آخر ،و لولا هذا لكان الوصول إلى الطرف الأعلى من البلاغة هيّناً ،ولتساوى إنتاج الأدباء جميعاً قدراً ورفعة ، ولكن دون ذلك خرطُ القتاد ."[4]

يقولون : " الأسلوب هو الرّجل " ،وصحيح ما يقولون ، ذلك أنّ الأسلوب يعني الصورة الفنية ،أو الطابع الخاص ،أو المزاج الشخصي الذي تهيأ للأديب عند صوغه الأثر الفني . ولا شكّ أن الأدباء يتفاوتون في التفكير ،والإحساس ،والبراعة ،وتتفاوت من ثَمَّ قِيَم آثارهم الفنية بتفاوت شخوصهم ومكوّناتها.

لكن منشئ القرآن الكريم ليس بشراً ،وإنما هو خالق البشر ، لذلك لم يظفر الوجود بأسلوب بلغ الإعجاز إلاّ في القرآن العظيم ،وهيهات أن يستطيع محمد وغير محمد من البشر أن ينشئ آيةً واحدةً من إبداعه تشبه أسلوبه ،وتتحدّى بيانه .

إنّ الذي خلق السموات والأرض ، والجنّ والإنس ،والوجود ،وما قبله وما بعده هو الذي أنزل القرآن ،وفصّله تفصيلا.

الله الذي انتهت إليه الإحاطة بجميع أحوال الخلق وحده ،هو القادر على تضمين كلامه كلّ المناسبات التي اقتضتها الأحوال الكثيرة التي لم يحط ،ولن يحيط بها سواه."[5]

جمالية الأسلوب القرآني في المفردة القرآنيـــــة:

تمتاز المفردة القرآنية بميزات ثلاثة رئيسة :

* جمال وقعها في السّمع.

*اتّساقها الكامل مع المعنى .

*اتّساع دلالتها لما تتسّع له عادة دلالات الكلمات الأخرى .

قد نجد في أسلوب بعض الأدباء كالجاحظ ،والمتنبي بعض الميزات الثلاث ،أما أن تجتمع كلّها معاً ،وبصورة مطّردة لا تختلف أو تشذّ ،فذلك مما لم تتوافر إلاّ في القرآن.

انظر إلى قوله تعالى في وصف كلّ من الليل والصبح : ((**واللّيل إذا عَسْعَسَ والصّبح إذا تنفّس**)[6] ألا تشمّ رائحة المعنى قوية من كلّ هاتين الكلمتين : عسعس وتنفّس ؟ ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالك صورة المعنى محسوساً مجسّماً دون حاجة للرجوع إلى معاجم اللغة؟ ،وهل تستطيع أن تصور إقبال ظلام الليل ،وتمدُّده في الآفاق المترامية بكلمة أروع من من "تنفّس "؟ بل هل نجد في المعاجم أدقّ من هاتين الكلمتين في التعبير عن هذين المعنيين ؟ "[7]

اقرأ قوله تعالى : ((**يا أيّها الذين آمنوا ،ما لَكُم إذا قِيل لكُم انْفِروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض** .))[8] وادرس الأداء الفني الذي قامت به لفظة " اثّاقلتم " بكلّ ما تكوّنت به من حروف ،ومن صورة ترتيب هذه الحروف ،ومن حركة التشديد على الحرف اللثوي "الثاء " ،والمدّ بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حرف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ،والميم التي عليها الشفتان ،ويخرج صوتها ،ألا تجد نظام الحروف ،وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت إليك المعنى قبل أن يرد عليك المعنى م جهة المعاجم ؟ ألا تلحظ في خيالك ذلك الجسم المثّاقل ، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط في أيديهم في ثقل؟ ألا تحسّ أن شيئاً من الخفّة ،والسرعة ،والنشاط أوحت به

((تثاقلتم)) بسبب رصف حروفها ،وزوال الشّدة ،وسبق التاء قبل الثّاء ؟ إذن فالبلاغـة تتم في استعمال " اثّاقلتم " للمعنى المراد ،ولا تكون في "تثاقلتم " .

ونستطيع أن نقيس على المثال السابق قوله تعالى: ((**وإنْ منكم ليُبطئنَّ**)) [9] ،وإنّك لمدرك أنّ صورة التبطئة أدتها الكلمة "ليبطئنّ" يحرسها إضافة إى ما أدته النونات في الكلمتين السابقتين من تأكيد لهذا الجرس الخاص. "[10]

إنّ الأمثلة في القرآن أكثر من أن تعد ،وتحصى ،وكلها تؤيّد هذه النظرية ،وتشير إلى أنّ جرس المفردات القرآنية يوحي بمعناها قبل أن يوحي مدلولها اللغوي عليه.

وهناك مفردات قرآنية من نوع آخر ، يرسم صورة الموضوع ، لا بجرسه الموسيقي بل بظله الذي يلقيه في الخيال ،وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ،حينما يوجه إليها انتباهه ،وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية .

مثال ذلك : ((**فأصبح في المدينةِ خائفاً يترقّب**)) [11] ، فمفردة ((يترقّب)) ترسم هيئة الحذر المتلفت ، في المدينة التي يشيع فيها الأمن والاطمئنان ، في العادة.

وقد يشترك الجرس ،والظلّ في مفردة واحدة ،كقوله تعالى : ((**يوم يُدَعُّون إلى نار جهنّم دعّا** .)) [12]فمفردة (يُدعّون) أو (دعّا) يصوّر مدلولها بجرسه ،وظلّه جميعاً ،ومما يلاحظ هنا أن (الدعّ) ،هو الدَّفع في الظَّهر بعنف ، ،وهذا الدفع في أكثر من الأحيان ، يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادي ،وفيه عين ساكنة هكذا في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس (الدعّ) .[13]

"اقرأ قوله تعالى : ((**يا أيّتها النّفس المطمئنّة ،ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي ،وادخلي جنّتي**)) [14]

وتأمّل ما ضمنت من مدود : يا– ها –جعي –إلى– را– خلي– في –عيا – دي – خلي– تي .

ما ضمت من تشديد : أيها –النّفس – المطمئنة– ربّك– ضيّة– جنّتي– .

وما ضمت من نونات: النّفس– المطمئنة– راضيتن – مرضيتن– جنتي.

وما ضمنت من حركات الكسر : جعي– ربّك خلي –في –دي – خلي– نتي .

ثم تصوّر أن الميت مسجيّ في كفن ،والقبر فاغرٌ فاه ، ينتظر ضيفه الجديد ، ليضمنه حيناً من الزمن ، ثم يسلمه إلى الأبدية الخالدة التي لا نهاية لها ،وتصور كذلك الدموع الصامتة يذرفها الأهل ،والأجانب لفراق عزيز ،أو حبيب ، عاش معهم حينا من الزمن ، ثم فارقهم إلى سفر طويل ، لا عودة منه ،وتصوّر الصراع النفسي في قلوبهم ، فرح فيما هو مقبل عليه م رحمة الله ،ونعيمه ،وحزن إنساني لا بدّ منه عند الوداع ، فهل تجد أوقع أثراً ،وأدقّ تعبيراً عن هذا الموقف الجليل ، وهذا الحزن ،وتلك الدموع ،وذلك الأمل العريض مما جاءت به تلك المفردات بكلّ ما حملت من مدود ،وشدّات ،وغنّات ،وحركات كسر ،ونونات ؟

جرّب أن تعيد قراءة الآيات مرات عدة ،وتأمّل في الحروف، ورصفها، والمفردات ، وترتيبها ،كلّ منها على حده، ثم في مجموعها ،وتناسقها ، فلسوف تجد الحزن، والرضى، والطمأنينة قد امتزجت امتزاجاً تامّاً. وهيهات هيهات

لإنسان –مهما أوتي حظّاً من الذّوق والأدب –أن يبلغ هذا المستوى المعجز ،ولو كان محمداً صلى الله عليه وسلّم."[15]

الخاتمـــــة :

في نهاية هذه الورقة البحثية يمكن أن أقف على جملة من النتائج أُجملها فيما يأتي:

1- تمتاز الكلمة القرآنية بثلاث مميزات أساسية ورئيسة:، تتمثل في الآتي:

أ–جمال وقعها في السمع ب– اتّساقها الكامل مع المعنى ت – اتّساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى .

2- المتّفق عليه أنه ليس في القرآن الكريم ترادف ذلك أن كلّ كلمة في القرآن الكريم تحمل معنى خاصّاً معيّناً ، لا تحمله الكلمة الثانية ،وخير دليل على ذلك قوله تعالى: ((**قالت الأعراب آمنّا قلْ لمْ تؤمنوا ولكِن قولوا أسلَمْنا ،ولمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قلوبِكُم** .)) (الحجرات : 14) فالإسلام غير الإيمان ،والفرق بينهما شاسع ، وشتّان بين التصديق الظاهري في الجوارح ،وبين الإيمان القلبي الذي يقرن القول بالفعل .

3- التناسق والمقصود به اتساق القرآن ،وائتلاف حركاته ،وسكناته ،ومدّاته ، وغُنّاته ،واتصالاته ،وسكناته . ذلك أنّ ما يسترعي الأسماع ،ويستهوي النفوس ، بطرقة لا يمك أن يصل إليها أي كلام آخر ،من منظوم ،أو منثور . وبيان ذلك أنّ مَن ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ،وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء ،مجرّدة من هيكل الحروف والكلمات ،كأن يكون السامع بعيداً عن القارئ يشعر من نفسه بأنه أمام لحن غريب ،وتوقيع عجيب ، يفوق في حسنه ،وجماله كلّ ما عرف من توقيع الموسيقى ،وترنيم الشعر.

4- إنّ الجمال الصوتي ،والتناسق الفني ،والإيقاع الموسيقي هو أوّل شيء أحسته الأذن العربية يوم نزل القرآن الكريم ،وتلاه الرسول صلى الله عليه وسلّم ،ولم تكن من قبل عهدت مثله في منثور الكلام ،ومنظومه . خيل إليهم أوّل إليهم أنه شعر ،لأنهم أدركوا في إيقاعه ،وترجيحه لذة ،وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع هزة ، لم يعرفوا قريبا منها إلاّ في الشعر ، لكن سرعان ما عادوا إى تخطئة أنفسهم فيما ظنه شعراً.

قائمة المصادر والمراجع :

1–التعبير الفني في القرآن ، د/ بكري شيخ أمين، دار الشروق بيروت ، الطبعة الرابعة، 1400هـ–1980.

2–الفاصلة القرآنية ،د/ عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر ، الرياض .

3–إعجاز القرآن ،محمد الباقلاني ، دار المعارف ، القاهرة ، 1954.

4–من بلاغة القرآن ،أحمد أحمد بدوي ، مكتبة نهضة مصر ،القاهرة 1950.

5–الظاهرة القرآنية ،مالك بن نبي، مكتبة دار العروبة ،القاهرة، 1958م.

6–الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن الثعالبي، الجزائر، 1323هـ.

7–بلاغة القرآن ، محمد الخضر حسين ، المطبعة التعاونية ، دمشق، 1971.

8–إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، لابن خالويه، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1941.

9-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي، ،المكتبة التجارية الكبرى القاهرة، 1965.
10-معاني القرآن ،الفراء ،دار الكتب المصرية ،القاهرة، 1955
11-التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف ،القاهرة، 1945.
12-القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ،عبد العال مكرم، دار المعارف، القاهرة،1968م.

1-التعبير الفني في القرآن ، د/ بكري شيخ أمين، دار الشروق،بيروت ،الطبعة الرابعة، 1400-1980م، ص179.

[2]-**مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني ، مطبعة شبرا،القاهرة، 1359هـ، 200/2**

[3]-سورة يوسف ، 2

[4]-التعبير الفني في القرآن الكريم ، د/ بكري شيخ أمين ، ص179-180.

[5]- مناهل العرفان ، للزرقاني، 2/ 204

[6]-سورة التكوير: 17-18.

[7]- من روائع القرآن ،محمد سعيد رمضان البوطي ، مكتبة الفارابي ، دمشق، 1970 ، ص142.

[8]-سورة التوبة: 38.

[9]-سورة النساء : 82 .

[10]-التعبير الفني في القرآن الكريم ، د/ بكري شيخ أمين ،ص181-182.

[11]-سورة القصص: 18.

[12]سورة الطور : 13.

[13]-التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف ،القاهرة، 1945، ص79.

[14]-سورة الفجر: 27-30

[15]-التعبير الفني في القرآن د/ بكري شيخ أمين، ص183.